

نشأة البحث البلاغي

للككتور عبد الحميد سند المجنري

المدرس بقسم اللغة العربية

(١)

الدور التاريخي العلمي

في صدر الدولة العباسية برز في المجتمع الاسلامي تغيرات جوهرية باعدت بينه وبين ماضيه بسبب الاختلاط الذي نجم عن اتساع الامبراطورية الاسلامية، وقد سقط النفوذ العربي السياسي وتحطمت عصبية العرب ، وظهرت فكرة الشعوبية ، وخفت صوت القائلين بأفضلية العرب . وكان لذلك كله نتيجة حتمية لازمة هي أن تصبح اللغة العربية صناعة ، وأن تُكتسب بالتعلم ، وأن يكون درسها ودرس أديها ذا قواعد وضوابط يُحتاج فيها الى التأليف والكتابة .

والى جانب ذلك كانت البيئة الثقافية الاسلامية تزخر بامتزاج علمي آخر اختلطت فيه ثمار العقول العربية بنتاج العقول الأجنبية . فقد التمس القوم آثار المدنيات المختلفة من يونانية ولاتينية وفارسية وهندية ، ونقلوا فنونا متنوعة من ذلك الى لغتهم ، وأقبلوا على دراستها وتمحيصها وتمثلها ... فكان لهذا كله أثره في الانشاء الأدبي وفي صناعة النقد .

وقد تسرب أثر هذه الحركة الفكرية سريعا الى الناحية الاعتقادية ، وساعد على ذلك تلاقى ديانات مختلفة ومذاهب متباينة ، فاشتعلت نار الجدل في أواخر القرن الثاني الهجري وتطايير شررها الى جميع أنحاء الامبراطورية الاسلامية . وكان أول ما أثير حوله هذا النقاش الحاد هو القرآن الكريم معجزة الاسلام الكبرى .

وقد حمى ومليس الجدل بين أئمة الأدب وأرباب المقالات من علماء الكلام في بيان وجه اعجاز القرآن ، واختلفوا في ذلك طرائق قددا وتضاربت آراؤهم كما هو مسطور في آثارهم مثل « المواقف » لعضد الدين و « المقاصد » لسعد الدين التفتازانى .

وكان رأى الآفن السقيم بين هذه الآراء رأى ابراهيم النَطَّام أحد زعماء المعتزلة وصاحب المذهب الخبيث الذى ينسب اليه ، وهو « مذهب الصِّرفَة » . وفحوى هذا المذهب أن القرآن ليس معجزا بفصاحته وبلاغته وأن العرب كانوا قادرين على أن يأتوا بمثله ، ولكن الله صرفهم عن ذلك تصديقا لرسوله حتى يؤدى رسالات ربه .

وقد انبرى للرد عليه جم غفير من جلة العلماء من بينهم الجاحظ والباقلانى وامام الحرمين والفخر الرازى وغيرهم ، وناضلوا نضالهم المحمود الذى حُلد لهم فى بطون الأسفار ، فكتبوا الفصول المستعة مبيينين خطل هذا الرأى فى منطق قوى سليم لم يُبق زيادة لمستزيد .

كذلك قامت سوق نافقة للحجاج والمناظرة فى ذلك العصر بين أئمة اللغة والنحو من أنصار الشعر الجاهلى الذين كانوا يرون الخير كل الخير فى الحفاظ على أساليب العرب وأوضاعها الفنية ، وبين الأدباء والشعراء أنصار الشعر المحدث الذين لم يكونوا يحفلون بنا درج عليه أسلافهم من العرب ، ورأوا أنهم فى حلٍّ من كل قديم لا يشاكل الحضارة التى مُغذوا بلبانها وربوا فى أحضانها . ولو أن القدر أتاح لهم أن يروا زخارف تلك المدينة ، وأن يستبدلوا الحواضر بالبوادى ، والقصور بالخيام ، والرياض الفاتنة بساتن الشيح والقيصوم ، والأنهار الجارية بمساقط الغيث الذى يزور لماما ، وترف الحياة ولينها بشظفتها ولأوائها - لو أن القدر أتاح لهم ذلك كله لكان لهم شأن فى أدبهم ومهتيع فى أساليبهم غير هذا .

يضاف الى ذلك اللجب ما شجر من الخلاف بين أئمة الأدب وأساطينه في بيان وجوه تحسين الكلام حتى يتوقل في مدارج البلاغة . وقد تناقضت آراؤهم في ذلك أيما تناقض ؛ ففريق مال الى رصين الكلام الجامع بين العذوبة والجزالة وسطوة العبارة ، وفريق أولع بالمنق الموشى بألوان من البديع . ومظهر ذلك ما نراه في كتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٧٦ هـ ، حين حكم على تلك الأبيات المشهورة لكثير عزة بأنها مؤنقة خلافة في لفظها ، فاذا أنت فتشتها لم تظفر منها بطائل ، وهى :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو مسح
ومثدت على محدب المهاري رحالنا ولم ينظر العادي الذي هو رائج
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطى الأباطح^(١)

ثم ما نراه في كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ هـ ، من استحسان لهذه الأبيات واتهام لذوق ابن قتيبة^(٢) ، ووافق على نقده هذا أبو الفتح بن جنى المتوفى سنة ٣٩٢ هـ في كتاب « الخصائص »^(٣) ، والامام عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ في « أسرار البلاغة »^(٤) الذى حللها تحليلا دقيقا يدل على ذوق فنى رفيع مبين مواطن الجمال فيها لفظا ومعنى . . الى غير ذلك من مختلف الآراء مما لا يتسع المقام لسرده الآن .

وكل ذلك لفت أنظار أئمة البلاغة الى أن يضعوا قوانين وضوابط يهرعون اليها عند الاختلاف ، وتكون دستوراً للناظرين فى آداب العرب منشورها ونظومها ، ونشأ من ذلك البحث فى علوم البيان أو علوم البلاغة .

(١) انظر مقدمة كتاب « الشعر والشعراء » .

(٢) انظر كتاب « الصناعتين » ص ٢٢ طبعة الاستانة .

(٣) انظر كتاب « الخصائص » ج ١ ص ٢٢٥ طبعة الهلال .

(٤) انظر « أسرار البلاغة » ص ١٦ طبعة دار المنار .

(٢)

وليس هناك من ريب في أن عناصر أجنبية شتى كانت ذات أثر بالغ في نشأة البحث البلاغى المنظم . ومن تلك العناصر ما هو يونانى ، وما هو فارسى ، وما هو سريانى ، وما هو هندي ، وما هو غير ذلك . وليس من الهين اليسير أن نحدد أثر كل عنصر على حدة تحديدا استقصائيا مضبوطا ونزده الى أصله ، فهذا أمر لا مطمع لأحد فيه ولا ينهض به جيل بأكمله . ولكننا برغم ذلك نستطيع لأنفسنا أن نقول ان العنصر اليونانى كان أوفر هذه العناصر الأجنبية حظا من عناية العرب . فقد أقبل القوم في نهم شديد على ترجمة منطق أرسطو وفلسفته ، وكانوا - لشدة اقبالهم له - يسمونه « المعلم الأول » . وكان من أبلغ كتبه أثرا في الثقافة العربية - وبخاصة البلاغة - كتابا الخطابة والشعر ، وقد ترجم الأول حوالى منتصف القرن الثانى أو فى أواخره على أكثر تقدير^(١) ، وترجم الثانى فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى^(٢) ، وللكتابين تلخيص فى كتاب « الشفاء » لابن سينا لعله أكمل صورة لهما فى العربية . وقد تبين من الرجوع الى أصل كتاب الخطابة فى غير العربية - فضلا عن تلخيصه العربى - أن فيه أبحاثا بلاغية مختلفة تسمح لنا بالقول بأن هذا الكتاب كان ذا أثر غير قليل فى نشأة البحث البلاغى وتطوره .

وحديثنا عن تلك الفلسفة اليونانية وأثرها فى البلاغة العربية يمهّد للإشارة الى ما كان للفلسفة الاسلامية الخاصة (أعنى أبحاث العقائد) من أثر فعال فى نشأة البحث البلاغى ، اذ كانت حاجتهم شديدة الى الكلام فى اعجاز القرآن ووجهه .

(١) انظر « فهرست ابن النديم » ص ٢٤٤ طبعة اوربا .

(٢) انظر « فهرست ابن النديم » ص ٢٦١ طبعة اوربا .

وعلى ذلك نرجح أن البحث البلاغى نشأ فى البيئات الكلامية ، ويصرح بذلك ابن تيمية فى رسالته (الايمان) حين يقول عند كلامه عن اصطلاح المجاز : « والغالب أنه كان من ناحية المتكلمين »^(١) .

وقد كان لتلك النشأة السابقة وما بيناه من عوامل فيها الأثر الواضح فى اتساع البحث البلاغى وتطوره وظهور اتجاهات مختلفة فى الدراسة البلاغية ؛ فكانت هناك طريقة المتكلمين ، والى جانبها طريقة أخرى هى طريقة الأدباء . ونحن لا نحتاج فى اثبات وجود هاتين الطريقتين الى أكثر مما صرح به أبو هلال العسكرى فى آخر الفصل الأول من الباب الأول من كتاب الصناعتين اذ يقول : وليس الغرض فى هذا الكتاب سلوك مذهب المتكلمين ، وإنما قصدت فيه مقصد صناع الكلام من الشعراء والكتاب ، فلهذا لم أطل الكلام فى هذا الفصل »^(٢) .

(٣)

أصبح البحث البلاغى يتناوشه اذن مدرستان : مدرسة كلامية ، ومدرسة أدبية . فالمدرسة الكلامية تمتاز بالتحديد اللفظى والعناية بالتعريف الصحيح والقاعدة المنضبطة والروح الجدلية ، مع الاقلال من الشواهد ، وعدم العناية باظهار الجمال الفنى فى التراكيب ، وتعتمد على المقاييس الفلسفية والأدلة المنطقية فى الحكم على الكلام بحسنه أو قبحه .

أما المدرسة الأدبية فتمتاز بالاكثار من الشواهد نثرا أو شعرا ، والاققلال من القول فى التعاريف والقواعد والتقسيم ، والاعتماد فى الحكم الأدبى على الذوق الفنى وعلى حاسة الجمال أكثر من الاعتماد على تصحيح الأقسام وسلامة التدليل المنطقى .

(١) انظر رسالة (الايمان) لابن تيمية ص ٣٤ طبعة المطبعة السلفية .

(٢) كتاب « الصناعتين » ص ٨ طبعة الأستاذة .

وقد تساربت المدرستان على اختلاف في التقارب والتباعد الى أن غلبت أخيرا الروح الكلامية في البحث البلاغى ؛ وكان لها اليد الطولى في تحديد دائرته تحديدا ضيقا هو الذى انتهى اليه .

رأعنا نستطيع أن نقول ان البحث البلاغى قد سار على وفق البحث المنطقى؛ اذ نراهم يعتبرون الجملة فى اصطلاح النحاة نظير القضية فى اصطلاح المناصفة^(١) . ونرى أن بحثهم فى المفردات وخصائصها — وهو ما يسمى بعلم المعانى — لا يكاد يزيد عن البحث المنطقى فى المفردات ، وهو أبحاث التصور . وأبحاثهم فى علم البيان — وهى تتناول المركبات ودلالاتها — تقابل التصديقات فى المنطق . ويجيء بعد ذلك علم البديع وهو تحسين ثانوى فى البحثين السابقين .

وعلى ذلك يمكننا أن نقول ان الدرس البلاغى قد بدأ ناقصا وانتهى ناقصا . فقد حررنا أبحاثا بلاغية قيمة نجدها فى بلاغات الأمم الأخرى ، وهى ضرورية للنقد الفنى ؛ كما هى ضرورية لصناع القول من كتاب وشعراء ... فمن تلك الأبحاث البحث فى الأسلوب واختلافه وأوجه تفاوته ومزايا أنواعه . ومنها البحث الأوسع فيما وراء الاستعارة والكناية من الغرض العام للأديب فى القصيدة أو القطعة النثرية ، وكيف يرسم صورة قولية فنية متصلة الأجزاء متناسبتها ، وكيف يبرز كل جزء من أجزائها . ومنها البحث فى إيجاد المعانى وفى ترتيبها وفيما يناسب كل فن أدبى منها وما لا يناسبه . وكذلك البحث فى فنون القول الأدبى نثرا وشعرا ودرسها فنا فنا لبيان ما به يحسن كل فن وما يجانسه من تشبيهات واستعارات وكنيات .. وغير ذلك من الأبحاث التى نجدها لدى الأمم الأخرى التى ألمع اليها الجاحظ وابن قتيبة والسجستاني وغيرهم .

(١) انظر « الاقصى القريب فى علم البيان للقاضى التنوخى » ص ٦ .

والحق أننا نجد عند المدرسة الأدبية في مختلف عصورها اشارات الى بعض تلك الأبحاث ؛ كالذى ساقه قدامة بن جعفر في « نقد الشعر » من الكلام على نعت الرثاء والمديح والهجاء والوصف والتشبيه ، وكالذى عرض لبعضه ابن الأثير في « المثل السائر » من بحث في الرسائل ومقدماتها والخطب وما يتصل بها ، وغير ذلك .

مهما يكن من شيء فلا ريب في أن البلاغة العربية كانت وثيقة الصلة بالبيئة الفلسفية ، ونعنى بالفلسفة معناها العام أو معناها الخاص ؛ كالفلسفة الاسلامية الكلامية التى تغلب عليها الصلة بالأبحاث الالهية . فنرى البلاغة في جميع أدوارها قد عاشت في كنف رجال الفلسفة ؛ فسهل بن هارون حكيم يتعاطى الفلسفة ، والجاحظ كان على رأس فرقة كلامية وقد قرأ كتب الفلاسفة عند الأمم المختلفة ، وقدامة بن جعفر فيلسوف منطقي ، وعبد القاهر الجرجاني متكلم ، والزحشرى من أشهر رجال المعتزلة ، والسكاكى من المبرزين في علم الكلام . . . وكذلك المتأخرون من طبقة المؤلفين ، كالعضد الايجى (نسبة الى ايج في فارس) ، والقزوينى والسعد التفتازانى ، والشريف الجرجانى ، والبسطامى ، ليس منهم الا وقد أخذ يحفظ من الفلسفة وعلم الكلام .

(٤)

الدور الفنى

وإذا كانت جملة ما ترتد اليه البلاغة أنها نقد ما يصنع من فنون القول أو انشاء تلك الفنون — فلا مرأى في أن ذلك موجود ما وجد قائل وناقد قول . وتلك نحيظة قديمة كانت الصحراء العربية زاخرة بها أيام الجاهلية وبعد أن أشرق نور الاسلام .

ففى أيام الجاهلية كان للقول المتخير من ثر وشعر سوق نافقة تدل على أنهم كانوا في نهضة أدبية حية . فقد كانوا ينقدون ما يسمعون من شعر ويتخيرون بعضه فيسرى في الآفاق ، كما نعرف من أخبار الأسواق . وكأذا .

لهؤلاء البداة في أيام السلم مجامع وسوامر يتسلون فيها بإنشاء المريض
وإنشاده .. ولا نكاد تتجاوز الحقيقة إذا قلنا ان حكمهم في المفاخرة والمناظرة
كانوا في جملة الأمر تقادا ، ينصرون فريقا على فريق لبلاغة قول وشدة أسر
شعر . وليس ذلك كله الا ضربا من الدرس البلاغى . وكانوا يسوقون
الأحكام في البادية على الطبيعة المشهودة ، محتكمين الى الذوق الفطرى دون
منهج ولا أسلوب مرسوم .

ثم أقبل الاسلام فكانت الدعوة الاسلامية درسا بلاغيا قويا ، اذ اعتمدت
في الاتقاع والدعاية على أسلوب بسط به بين يدي القوم أصول الدعوة
ومراميتها ، فلما أبوا واستكبروا تحدثهم أن يأتوا بمثل كتاب الله الكريم
فعمزوا « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن
لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » . وكان اعتناق العربى للاسلام
— على ما يظهر لنا — حكما تقديا أدبيا ، لأنه انما يكون بعد أن يجد في
نفسه صدى قويا لهذا الأسلوب القرآنى الذى تمنو له جباه أساطين البلاغة
واللشخن المقابيل ، كما حدث في اسلام عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه .
ثم كانت الحياة الجديدة مجالا واسعا لنقد أدبى أنشط مما كان في
الجاهلية ، فقد زاد في عوامل التفاخر عامل لا يفاخر قبيلا ولا ينافر شخصا ،
وانما يفاخر الجزيرة كلها وينافر الدنيا جميعا ، فالتقى شعراء المشركين ومن
ظاهرهم بشعراء النبى صلى الله عليه وسلم . وكان الحكم لهؤلاء أو أولئك
بالتفوق حكما أدبيا من وحى الذوق . ونرى صاحب الشريعة عليه السلام
بؤيد تلك الناحية الفنية في النقد الأدبى تأييد تاما حينما يسأل : فيم الجمال ؟
فيقول : في اللسان ، يريد البيان^(١) .

وخلف الرسول عليه السلام خلفاء كانوا خطباء مصاقع وتقادا يحسنون
الحكم على الشعراء وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه كان أتقد أهل زمانه للشعر

(١) العمدة لابن رشيقي ١٦١/١ طبعة مطبعة السعادة .

وأبصرهم به ، وحكمه لزهير بن أبي سلمى معروف . وقد ذكروا أنه كتب الى
أبي موسى الأشعري يقول : مر من قبلك بتعلم الشعر فانه يدل على معاني
الأخلاق وصواب الرأي ومعرفة الأنساب ^(١) . وأثر عن علي بن أبي طالب
كرم الله وجهه أحكام على الشعراء المتقدمين مقرونة بعلم التفضيل وأوجه
التقدير .

وهكذا كان عصر الرسول والخلفاء من بعده فيه نوع من الدراسة البلاغية
المعتمدة على الذوق الفنى والحس الفطرى . ثم كانت الدولة الاسلامية الواسعة
التي رفرف عليها لواء المدينة والحضارة ، فحجبت مظاهر الرفاهة مجال
الحسن الفطرى ، وباعدت بينه وبين معانيه رويدا رويدا . الا أنهم أرادوا أن
يحتفظوا بالتربية القومية والروح العربية ، جاعلين نصب أعينهم قولة عمر
السابقة الى عامله أبي موسى الأشعري ، وهى تدل على أنهم كانوا يعدون
الشعر والأنساب والأيام علم العرب ، وكانوا يتداولون دراستها على مثال
ما كانت تصنع مدرسة البادية معتمدة على الذوق الفطرى .

وما زالوا كذلك حتى وجدوا أن حَصَرَ العجبة قد بدأ يزحف الى السنة
أبنائهم بسبب اختلاطهم بأبناء البلاد المفتوحة ، فأخذوا يستدعون المؤدبين
ليحفظوا على الأبناء روح العربية وأدبها وهنا نرى فى هؤلاء المؤدبين أول
اتجاه مغاير يصيب الدراسة البلاغية الفنية . فقد أخذ أولئك المؤدبون يعملون
على تكوين البصيرة النافذة والقدرة على القول البليغ ، ويقاومون فى ذلك
عوامل اضعاف الروح العربية معتمدين على ضروب من التلقين والتعليم .
وكانوا ينتقدون معانى ما يروونه لتلامذتهم من الشعر نقدا يعتمدون فى جملته
كذلك على قواعد الجمال الفطرى واستيحاء الطبيعة . وكانوا يخوضون
من غير شك فى معنى الفصاحة والبلاغة ، ويحاولون ايضاح هذه المعانى بأمثلة
وشواهد من المروى ثرا ونظما . فكان ذلك تغييرا ما فى منهج الدراسة ، الا

(١) المستطرف للأبشيى ص ٢١٦ طبعة بولاق .

أنه كان تغييراً طفيفاً لا يخرج المدرسة البلاغية عن نزعتها الفنية ، وبخاصة اذا رأينا أن أوئك المؤدبين كانوا من أهل البادية الذين لم تلوث ألسنتهم حصائد العجة ، أو أشخاصا عمدة علمهم الرواية عن البدو .

وفي هذا الدور نرى دواعى المدنية قد دفعت القوم الى التدوين شيئاً فشيئاً ، فظهرت رسائل تحت عناوين بلاغية مثل « كتاب المعانى » لمؤرخ السدوسى ، ثم كتاب آخر اسمه « كتاب الفصاحة » لأبى حاتم السجستاني ، ثم « كتاب البلاغة » للمبرد .

وهنا نجد أننا قد شارفنا دوراً جديداً فى حياة البلاغة ، هو الدور العلمى الذى يتميز باتجاهه الجديد فى ضبط موازين النقد ووضع قواعد البلاغة والدنو رويدا رويدا من النزعة العلمية التى لم تكن نراها واضحة فى الدور السابق الذى نعتته بالدور الفنى . وقد تحدثنا فى أول الأمر عن هذا الدور العلمى .

(٥)

أشهر رجال البلاغة

والآن نسوق الحديث الموجز عن نفر من رجال البلاغة الباحثين ذوى الآراء الانشائية التى اتسع بها البحث وامتدت أطرافه ، ثم عن الرجال الذين قاموا بنصيهم فى التدوين والشرح وتهيئة المادة للدراسة ... نسوق ذلك على نظام ما يبناء من أدوار حياة البلاغة ومدارسها (دور تاريخى علمى ودور فنى - مدرسة أدبية ومدرسة كلامية) .

والحق أننا نجد فى أواخر الدور الفنى - وهو الذى سبق الدور التاريخى - رجالاً لهم متفرقات فى البلاغة ليست بالكتب المستقلة ، ولكنها على كل حال أبحاث مبتدئة كانت فيما بعد نواة للتأليف المحدد والبحث المستفيض ... فمن هؤلاء :

- ١ - عبد الله بن المقفع ، وهو كاتب أديب متفلسف ، وله كتب الأدب الكبير ، والأدب الصغير ، وكليلة ودمنة المترجم عن الفارسية ، ويرى بعض المستشرقين أنه من وضعه ^(١) . توفي ابن المقفع سنة ١٤٢ هـ .
- ٢ - جعفر بن يحيى البرمكي ، الوزير الأديب ، صاحب التوقيعات ، الذي ينقل له الجاحظ المنفرقات في بيانه عن الفصاحة والبلاغة ، توفي سنة ١٨٧ هـ .
- ٣ - بشر بن المعتز صاحب الصحيفة المعروفة في البلاغة وحدودها ، توفي سنة ٣١٠ هـ ^(٢) .
- ٤ - سهل بن هارون الكاتب المتفلسف الملقب (بيزرجهر الاسلام) ، ركان يتولى الهيئته على خزانة الحكمة للمأمون . توفي سنة ٢٠٦ هـ .
- ٥ - أبو عثمان الجاحظ صاحب الكتب المشهورة ، المتوفى سنة ٢٥٥ هـ .
- ٦ - ابن قتيبة الدينوري المتوفى سنة ٢٧٦ هـ صاحب طبقات الشعراء وعيون الأخبار وأدب الكاتب وتأويل مشكل القرآن .
- ٧ - المبرد المتوفى سنة ٢٨٨ هـ صاحب كتاب الكامل وكتاب المقتضب . هؤلاء هم الأدباء والكتاب الذين وضعوا اللبنة الأولى في صرح التأليف البلاغي .

ومنذ أوائل القرن الرابع نجد البحث يتخذ شكلا متميزا ، فنستطيع أن نذكر الرجال حسب نظام المدارس الذي أشرنا إليه . وأحب أن أشير الى أننا في هذا التفريق بين رجال المدرستين ، والحكم الواحد بأنه من رجال المدرسة الأدبية أو الكلامية إنما نعتمد في ذلك على الأكثر الأظهر من حال هؤلاء الرجال ، لأن نزعاتهم في ذلك الدرس لا تتميز تماما ، بل قد يختلط الأمر في الكتاب الواحد للرجل الواحد ، أو تظهر له العناية بالناحيتين في كتابين مختلفين يكون في أحدهما أجنح الى الناحية الكلامية وفي الآخر أدنى الى الناحية الأدبية .

(١) انظر « ابن المقفع » في دائرة المعارف الاسلامية .
(٢) اقرا هذه الصحيفة في البيان والتبيين ١/١٠٤ طبعة المطبعة التجارية .

رجال المدرسة الأدبية

يذكر الرواة أن أبا عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢٠٦ هـ هو أول من ألف في البيان كتابا سماه « مجاز القرآن » وتوجد منه قطعة مخطوطة في دار الكتب تحت اسم « تفسير غريب القرآن » لأبى عبيدة . وبالنظر فيها يتبين أن أبا عبيدة توخى في هذا الكتاب أن يجمع الألفاظ التي أريد بها غير معناها الوجيه . ألا تراه وقد سئل مرة عن قول الله عز و علا « طلعتها كأنه رءوس الشياطين » فقال : هو مجاز كتول امرئ القيس « ومسنونة زرق كأنيب أغوال » . ولذا يعتبر هذا الكتاب - في نظرنا - كتاب لغة ، ويمتبره بعضهم كتاب تفسير^(١) . وعلى ذلك رأينا أن نسقطه من حسابنا .

أما هؤلاء الذين بدءوا يشيدون صرح البلاغة العربية من غير أن ينزعوا بها بعيدا عن الذوق الأدبي والحس الفنى فهم :

١ - عبد الله بن المعتز الخليفة الشاعر المتوفى سنة ٢٩٦ صاحب « كتاب البديع » .

٢ - قدامة بن جعفر المنطقى الرياضى المتوفى سنة ٣٣٧ هـ والذي يقول فيه ابن النديم « أحد البلغاء الفصحاء والفلاسفة الفضلاء ؛ ومن يشار إليهم في علم المنطق »^(٢) صاحب « نقد الشعر » و « نقد الثر » .

٣ - أبو أحمد العسكري اللغوى المحدث أستاذ أبى هلال العسكري ، وقد توفى سنة ٣٨٢ هـ وله رسالة صغيرة اسمها « التفضيل بين بلاغتي العرب والمعجم » .

٤ - أبو هلال العسكري ؛ الحسن بن عبد الله بن سهل المتوفى سنة ٣٩٥ هـ صاحب كتاب « الصناعتين » المعروف .

(١) يعتبره الدكتور طه حسين كتاب لغة ا ذكرى أبى العلاء ص ١١٦) .

(٢) يعتبره الدكتور طه حسين كتاب لغة (ذكرى أبى العلاء ص ١١٦) .

٥ - القاضي الباقلاني ، أبو بكر محمد بن الطيب المتكلم الأديب المتوفى سنة ٤٠٣ هـ صاحب كتاب « اعجاز القرآن » .

٦ - ابن رشيق القيرواني ، أبو علي الحسن الناقد الأديب الكاتب المتوفى سنة ٤٦٣ هـ صاحب كتاب « العمدة في صناعة الشعر ونقده » .

٧ - ابن سنان الخفاجي ، أبو بكر محمد عبد الله بن محمد بن سميد ابن سنان الخفاجي الحلبي الشاعر الأديب المتوفى سنة ٤٦٦ هـ مؤلف كتاب « سر الفصاحة » .

٨ - أبو بكر عبد القاهر الجرجاني النحوي البليغ المتوفى سنة ٤٧١ هـ ، ويعتبر أدق من كتب في البلاغة من أهل عصره وأسأخاهم قلما وأوسعهم بيانا في كتابه « دلائل الاعجاز وأسرار البلاغة » .

٩ - ابن الأثير ، وهو الكاتب ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد الموصلى المتوفى سنة ٦٣٧ ، صاحب كتاب « المثل السائر » ، ولعله آخر من نعه من رجال هذه المدرسة ، لأننا لا نكاد نجد للطريقة الأدبية في الدرس أثرا يذكر ، بل تتم الغلبة للمدرسة الكلامية .

رجال المدرسة الكلامية

أشرنا آتفا الى عدم سهولة التمييز بين رجال المدرستين ، والى اختلاط النزعتين في الأثر الواحد للمؤلف ، واننا لذلك نضطر الى اعتبار بعض رجال المدرسة الأدبية من ذوى الأثر في المدرسة الكلامية . فنحن نجد قدامة بن جعفر ذا نزعة فلسفية منطقية ظاهرة ، وبخاصة في كتاب « نقد النثر » اذا صحت نسبه اليه . الا أن الحياة الأدبية الناشئة في عصره وعدم نضج الدراسة المنطقية اذ ذاك دفعاهم الى تركيز العناية بالناحية الأدبية ، وهذا ما جعلنا نعه من رجالها . وكذلك نرى عبد القاهر أميل الى النزعة الكلامية في كتابه « دلائل الاعجاز » ، والى الأدبية في « أسرار البلاغة » . الا أن أسلوبه

الأدبي المسهب ، واعتماده على الحاسة الفنية في الحكم على النص ، وحدثه المستفيض عن الذوق الأدبي ... كل ذلك وغيره جعلنا نعدّه من رجال المدرسة الأدبية .

ورأس هذه المدرسة الكلامية وأستاذها البارز هو :

١ - السكاكي ، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر المتوفى سنة ٦٢٦ هـ صاحب كتاب « مفتاح العلوم » . ويذكر ابن خلدون - حين يؤرخ للبيان - أن السكاكي هو واضع هذا الفن^(١) . ولعله محق في ذلك على اعتبار أنه يؤرخ للبيان على الصورة التي كانت متداصلة في عهده ، إذ كانت المدرسة الأدبية لذلك الحين قد أخلت الميدان تماما . ولنا في هذا الكتاب حديث مسهب بعض الشيء ، حينما تتكلم عن كتب المدرسة الكلامية . ويقول ياقوت في السكاكي : انه علامة امام في العربية والبيان والأدب والعروض والشعر ، متكلم فقيه ، متفنن في علوم شتى^(٢) . وحوالي عصر السكاكي أو بعده بقليل نرى رجالا يمكن أن يكونوا قد أحدثوا شيئا من الأثر في طريقة تلك المدرسة الكلامية . فنستطيع أن نعدّهم مع السكاكي من رجال هذه المدرسة المتميزين بشيء من البروز فيها ، ومن هؤلاء :

٢ - الفخر الرازي ، وهو فخر الدين محمد بن عمر المتوفى سنة ٦٠٦ هـ صاحب التفسير المعروف ، وله كتاب « نهاية الايجاز في دراية الاعجاز » .

٣ - التنوخى : زين الدين أبو عبد الله عمر المتوفى سنة ٦٣٧ هـ وله كتاب « الأقصى القريب » .

٤ - يحيى بن حمزة العلوى اليمنى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ صاحب كتاب « الطراز » وهو أوفى كتاب وضع في البلاغة حتى زمنه .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣١١

(٢) انظر « معجم الأدباء ٥٨/٢٠ طبعة دار المأمون .

هذا الى أننا نرى في القرنين السادس والسابع رجالا يعنون بتتبع بعض الفنون البلاغية كالمجاز والبديع في القرآن خاصة مثل :

٥ - عز الدين بن عبد السلام المتوفى سنة ٦٠٦ هـ في كتابه « الايجاز في بعض أنواع المجاز » .

٦ - ابن أبي الاصبغ العدواني المصري المتوفى سنة ٦٥٤ مؤلف كتاب « تحرير التحبير في علم البديع » وكتاب « بديع القرآن » .

أما بعد ذلك ، أى منذ القرن الثامن فلا نرى الا مؤلفين عيالا على من سبقهم ، يسطون ويطوون في أقوالهم دون زيادة في الجوهر أو الأصل .

(٦)

اهم كتب البلاغة

والآن نحاول أن نشير - في لمحة موجزة - الى أشهر كتب المدرستين . ونحن لا نطمح في دراسة خاصة للكتاب نيين بها جهد صاحبه ، وتأثره بمن قبله ، وصلته بمن بعده . فذلك درس يحتاج الى زمن كاف وتجرد تام له ، وانما نسوق هنا لمحات خاطفة عن تلك الكتب الكبرى بعد أن تترك المتفرقات التي كانت قبل وضع الكتب . وقد يدفنا المجال الى أن نبسط القول بعض الشيء في كتب بالذات لأن المقام يتطلب ذلك .

كتب المدرسة الأدبية

١ - كتاب البديع لابن المعتز : ويعتبر دراسة فنية لعناصر الجمال في الأدب . وقد جمع فيه مؤلفه محاسن الكلام التي ازدان بها كلام الفحول من الجاهليين والاسلاميين ، ووردت في الكتاب الكريم ، وفي حديث الرسول الكريم ، وكلام الصحابة والتابعين . ولم يكن ابن المعتز يعنى « بالبديع » ما يعنى به البلاغيون المتأخرون الآن من أنه العلم الذي يبحث في وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه

على مقتضى الحال ؛ ووضوح الدلالة على المعنى المراد ، وانما كان يعنى به سائر فنون البلاغة . ولهذا نراه يخوض فى فصول من « البيان » كالتشبيه ، والكناية ، والتعريض ، وفى فصول من « علم المعانى » كالاتفات ، والاعتراض ، فضلا عن بعض المحسنات البديعية كالتجنيس ، والمطابقة ، ورد أعجاز الكلام على ما تقدمها ، والمذهب الكلامى ، والرجوع ، وحسن الخروج ، وتأکید المدح ، وتجاهل العارف ، والهزل الذى يراد به الجذ ، وحسن التضمين ، ولزوم ما لا يلزم ، وحسن الابتداء .

والظاهر أن الذى دفعه الى تأليف هذا الكتاب تعصبه لعروبه وانكاره على المحدثين ادعاءهم بأن العناصر الجمالية من صنعهم ، فهو يريد أن يبين للناس أن بشارا وأبا نواس ومسلم بن الوليد وأبا تمام ومن سلك دربهم لم يسبقوا الى تلك الفنون ، ولكنهم أكثروا منها ، فعرفت فى زمانهم بكثرتها . وكانت تصدر عن السابقين عن طبع وسليقة ، لا عن عمل واسراف ، كما فعل غلاة المحدثين .

٢ - نقد الشعر : لقدامة بن جعفر ، وفيه أبحاث متفرقة عن اللفظ والمعنى وفنون القول الأدبى من وصف وتشبيه وهجاء . وفيه بعض أبحاث من الفيزن الثلاثة المعروفة ، بعضها باسمه الذى صار اليه أخيرا ، وبعضها باسم آخر كان له فى عصره ، كسمية الكناية المعروفة لنا الآن بالارداف . والكتاب فيه من الأبحاث البلاغية الفنية ما نحن الآن فى حاجة الى استكمالها ، كحديثه عن فنون القول وما به تحسن ، وأمثال ذلك .

٣ - نقد النثر : وفى نسبه الى قدامة شك ، وقيسته البلاغية دون كتاب « نقد الشعر » . وفيه أبحاث مقتضبة قليلة الجدوى فى وجوه البيان والمباراة والرمز والاستعارة والتقديم والتأخير والحذف ، وما شابه ذلك . وأبحاثه بعامه تسيطر عليها الروح المنطقية سيطرة أقوى مما فى نقد الشعر .

٤ - التفضيل بين بلاغتي العرب والعجم : لأبى أحمد العسكري ، وهو رسالة صغيرة اسمها أكبر مما تحتويه ، ففيه خواطر أدبية ولمحات بلاغية لا تقوم بذلك التسمية المهمة .

٥ - الصناعتين : لأبي هلال العسكري ، وفيه أبحاث مسهبة عن البلاغة والفصاحة ، ومتفرقات في العمل الأدبي وكيف يزاوله الأديب ويتخير له . وتختلط فيه الفنون البلاغية بطريقة غير متميزة .

وهو يتناولها بنزعة أدبية فنية نقدية . ونراه يسلك سبيل الجاحظ في الإبانة عن موضوع (البلاغة) في أصل اللغة ، وما يجرى معه من تصرف لفظها ، وذكر حدودها ، وشرح وجوها ، وضرب الأمثلة الكثيرة في كل نوع منها ، وتفسير ما جاء عن العلماء فيها . وهو معجب بكتاب « البيان والتبيين » ، ويصرح بأنه قرأه ، ويعترف بأن هذا الكتاب كثير الفوائد جم المنافع ، « الا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه ومنتشرة في أثنائه . فهي ضالة بين الأمثلة ، لا توجد الا بالتأمل الطويل والتصفح الكثير » . ولهذا رأى أبو هلال أن يصنف كتابه هذا « مشتتلا على جميع ما يحتاج اليه في صنعة الكلام نظمه وثره ، ويستعمل في محلوله ومعقوده من غير تقصير واخلاق ، واسهاب واهذار »^(١).

وليس من شك في أن الغرض الأول من دراسة البلاغة والبيان - في نظر أبي هلال - هو اثبات اعجاز القرآن « من جهة ما خصه الله به من حسن التأليف وبراعة التركيب ، وما شحنه به من الايجاز البديع والاختصار اللطيف ، وضمنه من الحلاوة ، وجلله من رونق الطلاوة »^(٢).

وهو ينقل كثيرا من كتاب « نقد الشعر » ويذكر اسم مؤلفه قدامة بن جعفر . وفي مواضع من النقد الشعري يكاد ينقل الصفحة الكاملة من كتاب « الموشح » للمرزبانى .

٦ - اعجاز القرآن : للقاضى الباقلانى ، وقد ألفه صاحبه ليرد الشبه التى يريد بها أعداء الدين الفرض من شأن الآية الكبرى للنبوة وهى كتاب الله الكريم .

(١) كتاب الصناعتين ص ٥ طبعة الاستانة .

(٢) كتاب الصناعتين ص ١ .

وقد عرض المؤلف لمسألة الإعجاز وشرحها وبيان وجوه الاختلاف فيها • وهو يذكر جملة من وجوه الإعجاز عند بعض العلماء ، كتضمنه الاخبار عن الغيوب التي لا يقدر على علمها البشر؛ وما كان معلوما من حال النبي صلى الله عليه وسلم وهو أنه كان أميا لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ ، وكذلك ما كان معروفا من حاله أنه عليه السلام لم يكن يعرف شيئا من كتب الأولين وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم ... ومن وجوه الإعجاز أن القرآن بديع النظم ، عجيب التأليف ، متناه في البلاغة الى الحد الذي يعجز الناس عن الاتيان بأية من مثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا • كما تكلم الباقلائي عن الشعر ومزاياه حين تعرض لنفى أن يكون الكتاب الكريم شعرا •

٧ - العمدة : لابن رشيق القيرواني ، وهذا الكتاب ينتظم أبحاثا في النقد والأدب ، ولكنه يعتمد على النقل والرواية أكثر مما يعتمد على قريحة المؤلف وآرائه الخاصة • وابن رشيق يعترف أنه « جمع أحسن ما قاله كل واحد منهم في كتابه ليكون العمدة في محاسن الشعر وآدابه » ^(١) ومع ذلك يقول « وعولت في أكثره على قريحة نفسى ونتيجة خاطرى » • وقد تصدى فيه لأبحاث بلاغية ، مثل باب البلاغة وباب الإيجاز وباب البيان وباب الاستعارة وباب التشبيه والكناية والرمز وغير ذلك. ولكنه يعتمد أكثر ما يعتمد على سرد أقوال السابقين . وتناول كذلك فنونا كثيرة من البديع ، واستحدث بعضها ، وقد أحسن في ذلك أيما احسان • وصدق ابن خلدون حين قال : وإنما اختص بأهل المغرب من أصنافه (أى علم البيان) «علم البديع» خاصة ، وجعلوه من جملة علوم الآداب الشعرية ، وفرعوا له ألقابا وعددوا أبوابا ونوعوا أنواعا ... » ، قال : ومن ألف في البديع من أهل افريقية ابن رشيق ، وكتاب العمدة له مشهور ، وجرى كثير من أهل افريقية والأندلس على منحاها ^(٢) • ويمتاز هذا الكتاب بالاكثار من

(١) كتاب العمدة ٢/١ طبع مطبعة السعادة .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٨١ طبعة بيروت .

الاستشهاد والتشيل ، والنزوع الى النقد الأدبي ، والعناية بالشعر دون النثر .
والمؤلف يشير كثيرا الى نقد قدامة وينقل عنه .

٨ - سر الفصاحة : لابن سنان الخفاجي : وهذا الكتاب من خير الكتب
وأفضلها . وهو نوع من البحث المسهب المنظم الدقيق في العربية وأصولها ،
ودراسة منظمة لعناصر الجمال الأدبي ، وسوق آراء سديدة في النقد وفنون الأدب
والبلاغة تم عن عقل عميق ومحصول ضخيم في العلوم العربية . وقد قدم لنا أبحاثا
قيمة في الفصاحة وحقيقتها ، وفي الصورة وجزئياتها ومكوناتها وکلياتها ، مع الامام
بكلام الفلاسفة والعلماء لعهده . وبحث في الحرف المفرد ومخارجه وتناسبها
وتباعدتها ، ثم في الكلمة المركبة وحسن جرسها ، واختيار الكاتب لكلماته
وما يلاحظ في ذلك من شروط ، مع ايراد الأمثلة الكثيرة من ذلك لوجوه
الشعراء ، ومن طريف أبحاثه التعرض لبيان كلمات تجرى في الهجاء وتقبح في
غيره ، وأخرى تستحسن في المدح وهكذا . كما تناول الجملة وتركبها
من الكلمات .

وقد يكون هذا الكتاب - فيما يبدو لنا - أصلا لما تولاه بالبيان العالم
الأديب المرحوم مصطفى صادق الرافعي في كتابه « اعجاز القرآن » ، وفيما كنه
من أبحاث حول الفلسفة الصوتية في القرآن .

٩ - دلائل الاعجاز : لعبد القاهر الجرجاني ، وهو الكتاب الذي غلبت فيه
النزعة الكلامية ، وكان موضوع العناية فيه تلك المسألة الكلامية الكبرى التي
شغلت أذهان المسلمين ردحا طويلا من الزمان ، وهي مسألة اعجاز القرآن .
وقد بسط عبد القاهر رأيه فيها وهو أن الاعجاز مرجعه النظم . وهذه الفكرة
رى أصلها في كتب سابقيه من المتكلمين ، ولكن عبد القاهر تناولها بالشرح
المسهب ، وأخذ يعيد فيها ، ولا يتركها الا ليعود اليها حتى استأثرت بالكتاب كله .
وفي أثناء ذلك خاض في أبحاث بلاغية ، كالتقديم والتأخير والتكثير والتعريف

والفصل والوصل والايجاز والذكر والحذف ، وكالمجاز والتشيل والاستعارة والكناية ، وكالسجع والتجنيس ، وغير ذلك من الأبواب البلاغية الكثيرة .

١٠ - أسرار البلاغة : للمؤلف نفسه ، وهذا الكتاب تغلب فيه نزعة عبد القاهر الفنية ، ولايكاد يعرض لمسألة الاعجاز ، بل يقل فيه استشاده بانقرآن الكريم الى حد يستحق التعليل . وقد عنى بفنون الحس في القول ، وبم تكون . وفي هذا السبيل يتناول أبحاثا بديعية وبيانية غير مرتبة ولا مبوبة ، فتكلم في التجنيس والسجع والاستعارة والمجاز والحقيقة والتشيه وما شابه ذلك من الأبحاث .

وعبد القاهر في هذا الكتاب يتجرد للدفاع عن المعنى دفاعا حارا ، ويرى أن مقاييس الحكم على النص الأدبي ترجع كلها الى المعنى . وهو بذلك يرد الرأى الذى نادى به الجاحظ وهو أن المعانى مطروحة فى الطريق ، يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى ؛ « وانما الشأن فى اقامة الوزن وتمييز اللفظ وسهولته ، وسهولة المخرج ، وفى صحة الطبع وجودة البك . فانما الشعر صناعة وضرب من الصنع وجس من التصوير »^(١).

ولهذا ترى عبد القاهر يفسر كل حسن لفظى تفسيراً معنوياً .
وكتب عبد القاهر المبسوطة المتسيرة العبارة - وبخاصة أسرار البلاغة - كانت - مع نزعتها الأدبية - دعامة كبرى للمدرسة الكلامية فيما تصدت له من تبويب وتحديد وتقسيم ، كما صرح رجالها أنفسهم بذلك كالسكاكى فى المفتاح والسعد التفتازانى فى شرحه المطول للتلخيص

١١ - المثل السائر : لابن الأثير . وقد جعل فيه مؤلفه الصناعة الأدبية الانشائية أساس البحث . وهو كاتب أديب ، وكان من كتاب الديوان الذى كان يرأسه القاضى الفاضل زمن صلاح الدين . وأحكامه النقدية مدعومة بتجاربه وملاحظاته . وهو بذلك قد أحيا روح الدراسة الأدبية وأنعش مدرستها فى ذاك

(١) انظر كتاب الحيوان للجاحظ ٢/٤٠ .

العصر المتأخر انعاشا يجعل كتابه هذا من المراجع الصالحة لمن يريد اجيآء رشوم تلك المدرسة . وقد تناول أكثر الفنون البلاغية على أساس جديد نوعا ما في التقسيم ، اذ أفرد الصناعة اللفظية في جانب ، والمعنوية في جانب آخر . وقد بنى كتابه على مقدمة ومقالتين ، فالمقدمة تشتمل على أصول علم البيان ، والمقالتان تشتملان على فروع هذا العلم ، فالأولى في الصناعة اللفظية ، والثانية في الصناعة المعنوية .

وأول ما بيد هنا في هذا الكتاب أننا نرى المؤلف معتدا بنفسه مزهوا بعلمه ، ولهذا نجده ينتقص غيره من الباحثين في البلاغة ، ويعتقد أن كتابه هذا « بديع في اغرابه وليس له صاحب في الكتب »^(١).

وقد أثارت شخصية ابن الأثير وشدة عجبه بنفسه ضجة كبيرة حول كتابه هذا ، فتناوله بالتقد معاصروه ، مثل ابن أبي الجديد المتوفى سنة ٦٥٥ هـ صاحب « شرح نهج البلاغة » ، فقد ألف كتابا سماه « الفلك الدائر على المثل السائر » تتبع فيه سقطات ابن الأثير . ووضع أحد أدباء القرن الثامن كتابا سماه « نصرة الثائر على المثل السائر » ، وهو الشاعر الأديب صلاح الدين الصفدي المتوفى سنة ٧٦٤ هـ ، وقد تناول فيه المؤاخذات التي تركها ابن أبي الحديد .

١٢ - الجامع الكبير في صناعة المنظوم والمنثور : لابن الأثير نفسه ، وهو على منوال المثل السائر، بل ان فيه أبحاثا توجد بنصها فيه مما يستحق الملاحظة؛ وان كان قد زاد فيه فصولا كثيرة ، مثل عنايته باللفظة المفردة التي كانت موضع دراسة ابن سنان الخفاجي في سر الفصاحة ؛ وفيه أبحاث أخرى طريفة .

وهذا الكتاب مع صنوه المثل السائر يعتبران صورة طيبة من النقد المعتمد على ممارسة صاحبه وملاحظاته الشخصية . وبهما ينتهى حديثنا في كتب المدرسة الأدبية ، حيث تربعت المدرسة الكلامية على عرش البحث البلاغي كما ذكرنا بظهور كتاب « مفتاح العلوم » .

(١) انظر المثل السائر ص ٢ .

كتب المدرسة الكلامية

مفتاح العلوم للسكاكى : وهو أهم كتب هذه المدرسة وأخلقها بالدرس والتناول ، بل اتنا نجاوز الحق اذا قلنا ان هذا الكتاب صار عند الأجيال الخالفة محور الدراسة البلاغية ومرجعها . ولهذا سنقصر حديثنا عليه من كتب تلك المدرسة ، لأنه أصبح قطب الرحى الذى دار حوله التأليف البلاغى بعده . وقد عالج السكاكى البيان فى هذا الكتاب بعقلية أصح ما توصف به أنيا ليست يانيه . فقد أصبحت البلاغة قواعد جافة تحفظ وقلماً يقاس عليها ، وفقدت قدرتها على تذوق البلاغة وتكوين البلغاء والنقاد .

وحسبنا دليلاً على ذلك أن السكاكى درس البيان فى هذا الكتاب بالروح التى درس بها فيه علم النحو ، وعلم الصرف ، وعلم العروض والقوافى ، وعلم الاستدلال (وهو المنطق) . وهذا ما لم يفعله أحد من الذين سبقوه الى الكتابة فى علم البيان ، لا لأنهم كانوا يجهلون تلك العلوم التى أحصاها السكاكى ، فربما كان فيهم من هو أعلم بها منه . ولكنهم نظروا الى فن (البيان) فأنفود علماً جالياً يتعمد مجاله عن مجال تلك العلوم التى يبحث بعضها فى صحة اللفظ ، وبعضها فى صحة التركيب ، وبعضها فى صحة الوزن والقافية ، وبعضها فى صحة التفكير . بخلاف البيان الذى يبحث فى شئ وراء هذه الصحة هو دراسة الأسباب والعوامل المؤدية الى المتعة الفنية واحداث التأثير فى نفس قارىء الأدب وسامعه .

وقد قسم السكاكى كتابه الى ثلاثة أقسام : الأول فى الصرف ، والثانى فى النحو ، والثالث فى البلاغة . وهذا القسم الأخير جعله علمين ، هما علم المعانى وعلم البيان ، وجعل علم البديع تابعاً لهما . وقد أضاف الى كل قسم من هذه الأقسام ما يكمله ، فقسم علم الصرف بعلم الاشتقاق ، واعتبر علمى المعانى والبيان مكملين لعلم النحو ، وأكمل المعانى - فيما رأى - بالكلام فى الاستدلال .

وتحدث عما يتم به الغرض من علم المعاني وعلم البيان ، وهو الكلام في الشعر ،
وبذلك اضطر الى البحث في العروض والقوافي^(١).

والحق أن السكاكي قد أفقد البلاغة العربية بهذا التعقيد الذي مجده به
ابن خلدون . فقد حول البيان - وهو فن الذوق المطبوع - الى أبحاث
وثيقة الاتصال بالمنطق ، وبذلك أدخل أساليب البحث المنطقي في دراسة
الأساليب البيانية الأدبية . وهو يصرح في غير موضع بحاجة علم البيان الى علم
الاستدلال (المنطق) . وهذا أمر يدعو الى العجب ، لأن العربي في جزيرته كان
يصوغ المعاني الرائعة ويرسل البيان الرفيع الذي كان موضع اعجاب خالفيه من
غير أن يلم بعلم الاستدلال الذي يجعله السكاكي أساساً من أسس البيان ، ومن
غير أن يعرف بلاغة السكاكي أيضا . فلما أفضى الأمر الى معرفتهما والوقوف
عليهما غاضت تلك الينابيع الفياضة الحرة .

وقد صار كتاب المفتاح مرجع البلاغيين الأكبر في دور الجمود والتوقف
الذي امتد الى قريب من عصرنا .

ولمنا نعرف السحر العجيب الذي فتن العلماء بكتاب السكاكي ، فجعلهم
ينسون أنفسهم وينكرون ملكاتهم ليسيروا في ركاب السكاكي ، ويعتبروا كتابه
الغاية التي يیشمونها . فقد اقتصروا على شرحه وتلخيصه في متن ، ثم شرح
التلخيص عدة شروح ؛ ثم وضعت حواش مختلفة على الشروح . ولعل أشهر
هؤلاء العلماء بدر الدين بن مالك المتوفى سنة ٦٨٦ هـ ، وقد اختصر المفتاح في
كتاب سماه « المصباح في اختصار المفتاح » ؛ والخطيب القزويني المتوفى سنة
٧٣٩ هـ الذي اختصره في كتاب سماه « تلخيص المفتاح » طبقت شهرته الخافقين ؛
وعنى بشرحه الجهم الغفير من العلماء . وضع قطب الدين الشيرازي المتوفى
سنة ٧١٠ هـ كتابا سماه « مفتاح المفتاح » ؛ وشرحه ابن مظفر شمس الدين
الخطيبي المتوفى سنة ٧٤٥ هـ في كتاب سماه « شرح المفتاح » . واختصره عضد الدين

(١) انظر « مفتاح العلوم » ص ٣ طبعة المطبعة الادبية .

الايحي الشيرازى المتوفى سنة ٧٥٦ هـ فى كتاب اسمه « الفوائد الغياثية فى علوم المعانى والبيان والبديع » .. وغيرهم .. وغيرهم من العلماء الذين عنوا بتلخيص المفتاح وشرحه .

بيد أن أحد هذه الشروح والتلخيصات حظى بعناية علماء البلاغة ، وهو « تلخيص المفتاح » للخطيب القزوينى ؛ فقد شرحه المصنف فى كتاب سناه « ايضاح التلخيص » ، وأضاف اليه زيادات أخرى من كتابى عبد القاهر «دلائل الاعجاز» و « أسرار البلاغة » . ووضع فخر الدين الرازى شرحاً لأبيات الايضاح .

ومن أشهر شراح التلخيص مظفر الحطيبى وله « مفتاح تلخيص المفتاح » . وبهاء الدين السبكى (٧٧٣ هـ) وله « عروس الأفراح فى شرح تلخيص المفتاح » وناظر الجيش (٧٧٨ هـ) وسى شرحه « شرح تلخيص القزوينى » ؛ وسعد الدين التفتازانى (٧٩٢ هـ) وله شرحان : الشرح الكبير والشرح الصغير للتلخيص ... وغيرهم كثيرون .

وندع الآن الذكر التفصيلى لهذه الشروح لنشير الى ظاهرة جديدة بالذكر ؛ هى نظم المتون البلاغية التى بدأت فى القرن التاسع على الأرجح . ولعل أقدم ما نظم فى البلاغة منظومة ابن الشحنة المتوفى سنة ٨١٥ هـ فى علوم البلاغة الثلاثة ولعلها أقدم المنظومات البلاغية . ومن أشهر المنظومات « عقود الجمان فى علم المعانى والبيان » للسيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ ؛ وكذلك « الجوهر المكنون فى الثلاثة فنون » للأحضرى من رجال القرن العاشر ، وعليه شرح للدمنهورى المتوفى سنة ١٠٩٢ ؛ وحاشية للشيخ مخلوف النياوى من علماء القرن الثالث عشر . وهناك منظومة الهدلى ، وملحة البيان لزين المرصفى المتوفى سنة ١٣٠١ وغير ذلك من المنظومات .

وهناك ظاهرة أخرى بلاغية أدبية هي نظم القصائد المعروفة « بالبديعيات »
في مدح الرسول عليه السلام ، كل بيت منها يشتمل على لون من البديع ؛ مثل
بديعية ابن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧ هـ وشرحها معروف باسم خزانة الأدب ؛
وبديعية السيوطي ، وبديعية الاياري ، وبديعية صفي الدين الحلبي ، وبديعية
النايلسي وغيرها .